الخالة تولا / الأمومة العذراء

محمد عيسى
دمشق

صدر حديثاً عن دار المدى في دمشق رواية (الخالة تولا) للكاتب الاسباني ميغيل دي اونامونو ، ترجمة صالح علماني لعام ٢٠٠٩ بمساعدة الإدارة العامة للكتاب والأرشيف والمكتبات في وزارة الثقافة الإسبانية.

تدور احداث الرواية حول اختين تعيشان مع خالهما القديس في بيت واحد ، الاولى كانت على قدر من الجمال ما يجعل كل شباب الحي ورجالهم ينبهرون بها يصفها لنا الكاتب بأنها (زهرة من لحم تتفتح على وجه السماء)، اما الثانية فلم يصفها لنا الكاتب سوى بعبارة (ذات العينين الحداديتين) ، فلسفة ورؤية خاصة للأخت الكبرى مفادها انه المرأة الجميلة خلقت للزواج والعائلة والاطفال اما المرأة التي ليست على قدر من الجمال فبيتها وعائلتها هو الدير ، تعمل (تولا) او(خيرترودیس) على تزويج اختها (روسا) بطريقة اقرب منها للاكراه بأول شاب يتجرأ ويتعرف عليها وتبدأ الأحداث .

الاختان تشكلان ثنائياً لا يمكن الفصل بينهما ولكن هذا لا يعني انهما متحدتان دوماً فهما تجتمعان وتفترقان في مواقف ورؤى معينة خاصة من ناحية الرجال اذ ترى تولا بان روسا خلقت للدنيا، اما هي فقد خلقت للعالم الاخر الذي تبذل نفسها وتهب حياتها لاجله ، تنذر تولا نفسها لأختها واولادها الثلاثة وتكرس نفسها جسداً وروحاً لرعاية اطفال اختها وتربيتهم تربية صالحة ، فتقدم حياتها قرباناً مقدساً لهم ، فتعاملهم في بادئ الأمر كخالة ، ثم ما تلبث ان تتحول الى ام مركزية وتحل محل ام الصغار الحقيقية التي فارقت الحياة بعد الطفل الثالث الذي انجبته ، وتعيش الخالة تولا مأساة الأمومة والعذرية ، فهي تمارس حياتها الطبيعية كأي (أم) تعتني بأولادها وتلبي لهم طلباتهم وتسهر على راحتهم وهي في الوقت نفسه (العذراء) التي تعاني من عمق الحد الفاصل بين ضفتي الأمومة والعذرية ، اذ يصفها لنا الكاتب في الصراع الداخلي للشخصيات الذي برع في تصويره على انها (طنجرة ضغط جنسي غير مشبع) ، يحكمها العرف القاسي والصارم للواجب المقدس المستند الى تدين متعصب ومتشدد موروث عن الأسرة ، وكما جرت الأعراف والتقاليد للمتزمتين دينياً فإن الكنيسة هي ملاذهم الآمن تلجأ تولا الى قديس للاعتراف له بخطاياها ولكن جبروتها النفسي لم يصل بها الى نقطة تلتقي بها اعترافاتها مع حلول القديس ونصائحه. الرواية مليئة بالملاحظات والمشابهات المتناقضة الغريبة بعض الشئ ، فتولا تفتح باب الشرفة لا لتغير هوائها ودخول اشعة الشمس وانما تفتحها كي تخرج رائحة الرجل من الغرفة!

الرواية تجمع بين كلاسيكية الأدب وبداية الحداثة الروائية التي آلت اليه الروايات العالمية اليوم، الدراية والحنكة في هذه الحبكة الروائية الانسانية تجعل من ميغيل دي اونومانو قاسياً بل ظالماً اذا صح التعبير في التعامل مع شخوص روايته عندما يحاول ان يصفهم جسدياً فالطفل الحديث الولادة عنده هو (لفافة لحم حي يائسة) لكن براعة المترجم ولغته الأدبية المتمكنة في نقل سياق احداث الرواية تجعل من القارئ مستمتعاً اكثر برغم قساوة المؤلف في الوصف الجسدي لشخصيات الرواية ، ولكنه يبدع في تصوير الحالات الانسانية التي تمر بها الخالة تولا وهي تفي بالوعد الذي قطعته على نفسها امام اختها وهي تحتضر على فراش الموت في حالة ، وفي حالة أخرى يصف لنا كيف قامت تولا بتكفين خالها القديس عند وفاته بعناية الامومة نفسها التي لفت بها ابناء اختها بأقمطتهم عند ولادتهم ، تضاد بين الحياة والموت وبين الأنا ونكران الذات نجح الكاتب والمترجم ايضاً في ايصال الروحية الشعرية والفلسفة العظيمة التي اشتهر بها الأدب الاسباني عامة والقشتالي خاصة اذا ما قلنا ان الرواية كتبت في عشرينيات القرن الماضي.

ميغيل دي اونامونومفكر وروائي وشاعر وكاتب مقالة اسباني ولد في ١٨٦٤ درس الفلسفة والآداب وحصل على كرسي اللغة الإغريقية في جامعة سلمنقة ثم صار عميداً لها حتى أقيل منها لأسباب سياسية، ونفي إبان حكومة الدكتاتورية ١٩٢٤ إلى جزيرة فوييرتبنتورا لكنه فر منها إلى فرنسا ومكث هناك على الرغم من صدور قرار العفو عنه حتى سقوط الدكتاتورية عام ١٩٣٠ واستقبل استقبال الأبطال عند عودته وعين مرة أخرى عميداً لجامعة سلمنقة وظل في المنصب حتى وافته المنية في ١٣ كانون الأول عام ١٩٣٦. ، وهو من اهم رواد حركة ١٨٨٩ في اسبانيا مؤلف روايات:رواية الضباب ١٩١٤ ، أبيل سانشيث ١٩١٧ ، الخالة تولا ١٩٢١، القديس مانويل الطيب الشهيد ١٩٣٣.

ما يقوله التاج للهدهد.. حين يتذكر النول تأريخه شعراً

ريسان الخزعلي

-١-

..لبلقيس التاج..
ولسليمان المعجزات..
ولنا سبأ والفيضان..
لا ذنبَ لنا ببعث الهدهد الجديد..

../ما يقوله التاج للهدهد/لا/ما قاله التاج للهدهد/.. انه المروي القادم بين قطيعة الماضي والحاضر، وتضاد الحاضر مع الماضي، حيث يكون التاج لبلقيس ولسليمان المعجزات، ولنا سبأ والفيضان. غير ان ثمة نفقاً يوازي الوعي والأتجاه، حيث الوجود في ظلمة النفق أساساً وما سيكون خارج النفق من لزوجة (وجود أم نفق) .. الا ان العلامة الاتية (نور في نهاية النفق) ومن ثم (لمن انتسب؟).. وهكذا تتوالد وتتكامل/ القطيعة / معرفياً وروحياً في مجموعة الشاعر المبدع/ وديع شامخ/...، تتوالد وتتحرك كحركة / النول/ في تشكيل النسيج:

.. حين تذكر النول تأريخه..
أحيل على التقاعد بتهمة خصخصة النسيج الوطني،
واخفاء الفضلات المحرّمة..
لابد للنول ان يتذكر!...
ان تتذكر.. يعني بالقياس ان تروي..

والشاعر يتذكر ويروي الأشارة الدالة (بلقيس، التاج، سليمان، الهدهد، سبأ، الفيضان، الهدهد الجديد)... وحين يكون بعث الهدهد الجديد ممكناً.. فإن التحول من (ما قاله التاج للهدهد) الى (ما يقوله التاج للهدهد) هو الدلالة التي تكشف قوة الاستمرار (استمرار الحكاية والدلالة معاً) في توليف الشعري بشكل /قصيدة نثر/ يرتكبها الشاعر بوعي الشعر والفكر والفلسفة في اختلاط يصح فيه من القول الكثير (كان بودي ان أكون علامة استفهام..؟ السيف علامة استفهام، الخنجر علامة استفهام، الرغيف الذي لا يستدير بيد الخباز علامة ايضاً)..، ان الاسئلة محنة الفكر والوجود، والسؤال الفلسفي محنة مضافة، وما هو فكري وفلسفي تعلق بقوة في قصائد المجموعة وازاح /الغنائية/ في سرية القول (ما يقوله) الى منطقة /الذهن/ والتجريد وتعددت التأويلات التي هي ليست بمصلحة /الشعر/ في الفهم التداولي له، وبذلك مالَ القول الى ما هو خارج المركز في دائرة توليد القصيدة وكثُر /الاستيضاح/ في المحيط، محيط دورة القصيدة (لماذا ألح عالم النور بالصراخ والدم؟ لقد سرقوا مشيمتي).. والمشيمة مركز، والنور محيط المركز الا ان الشاعر يمسك بالمركز والمحيط..، هذا ما آلت إليه آليات البناء في المجموعة... وهذه مزية جمالية/ فنية قلما تتوافر عليها قصيدة النثر حينما يكون الأنفتاح باتجاه تشكيل /صورة نص/

-٢-

../وديع شامخ/ لا يكتب عن الحياة كواقعة ومواجهة يومية، بمعنىً انه لا يتماس مع السطح مباشرة بل ينفذ الى العمق الكلي بوعي متشكل من صدمة الواقعة (الغناء لا صنو له.. ثمة حياة هنالك لابد من السير اليها بأقدام حافية من القرون والببغاوات)..، وان الذهاب الى العمق الكلي يستوجب التضحيات بالكثير من المسببات التي تبعث على المسرّة، المسرّة التي ينشدها التلقي الجاهز، من هنا يمكن ان نصف /وديع شامخ/ بأنه شاعر أعماق وبؤر روحية (لستُ سيفاً كي أقاضي العسل، انا الحصان الذي كبا فاتحهُ، في دائرة الحدوة وطلقة الرحمة أصابت ركبتي وانطلق اللجام لترتيق الحكاية).

في /ما يقوله التاج للهدهد/.. يشع السرد في تواشج مع التوصيف / ما يقوله/..ويتمكن الشاعر من هذه الخاصية البنائية /الصورّية في تشكيل القصيدة، لأيجاد نموذجه الشعرية/ السردي بدراية العارف بالضرورة الفنية..

.. وقبل التدوين وعصر السلالات
وخريف القول..
كان الكلام طلسماً..
وكان الهدهد ينتظر الأشارة
..،
انت ابن ماء السماء
تتسربل بأوحال
ابراجك..
ماطراً،
راعداً،
مضيئاً ،
خابياً..
كطرفة
عين..
والحلم
بعيد..
وعندما يكون
/الهدهد/
رمز الشاعر،
فان الترميز
هذا يكتسب
الوقع الصوتي
الدال (الأشارة)
حيث التنازع بين
الواقعتين /رؤية
التاج/ وتوصيل
الرؤية هذه صوتياً
الى المرسل (كان الكلام
طلسماً) وبذلك تحققت
تعادلية وضوح الحكاية
صوتاً واشارة في النص
الشعري:
..الحكاية.. أحلك من
طلسم
واعمق من هدهد..
وأجل بريقاً من كرسي..
وانت النازل والهابط من طين
سيوف المهزلة!
تحارب مَنْ؟

الا ان الشاعر سرعان ما يُهدم أصول الحكاية، ويسقطها / رمزاً/ جديداً.. غير انه الرمز المثلوم.. (وفي كل هذا الغياب.. كنت مساءها الثقيل، ونهارها الهارب من طلاسمها ونصف هدهدها، ونصف تاجها، وحكايتها المثلومة وقمرها الغاطس في الوحل واصنامها التي فخرتها الشمس).. وبهذا يكون الشاعر قد نفذ من سطح الحكاية الى /بعد/ آخر..، في تأويل فكري فلسفي يسعّفهُ القول:

.. الفلاسفة الذين نزلوا من زرقة الحجر الى زرقة الموت
ومن بخور الآلهة الى زعفران الحناجر
يتدلون على الأيام كتقويم مديد
فلاسفة وأسفلت وطريقة!

.. ان ما يربط /النول/ بالهدهد.. حكاية التكرار، الحكاية التي تكررت وتتكرر رمزياً في الحضور الحياتي/ الشعري.. مع فارق الدلالتين/ الأشارتين، وقد جعل الشاعر منهما مساحةً لقوله لكشف العمق الكلي الذي أشرت اليه وبسياق قصيدة النثر/ حيث الأيقاع القادم من دهشة المخيلة:

..يا أخي السوط..
أنام على فتوى، واصحو على طريقة..
منتظراً أقواماً تجيء أو تهبط،
هاربة من فزعها..
أين أعلق ملابسهم يا أخي!
والبيت مشجب للوصايا والبنادق والسياط..

.. في/ ما يقوله التاج للهدهد/.. براعات/ لغوية وصورية ورمزية وبنائية/.. تتقدم في مواجهة الخصوصية، خصوصية توليد قصيدة نثر منسوبة للشاعر.

حصاد المطابع

أدباء ومفكرون

يتضمن هذا الكتاب للمؤلف عبدالرشيد الصادق محمودي، والصادر عن المجلس الأعلى للثقافة في القاهرة مقالات تتناول مجموعة من رجال الأدب والفكر فى أوقات متفرقة، ونشرت فى مصادر صحفية مختلفة. وهى إذ تجمع هنا تنشر على حالتها الأولى باستثناء تعديل بعض العناوين.

من مانهاتن إلى بغداد

كتاب «من مانهاتن إلى بغداد» الصادر عن دار الساقي، هو حوار بين اختصاصيين في شؤون العالمين العربي والإسلامي، هما محمد أركون وجوزيف مايلا ويرمى إلى تبيان معاني اعتداءات ١١ أيلول التي أيقظت الفوارق والاختلافات الكثيرة التي تباعد بين الشرق والغرب .

فأرة أدونيس

يستنطق الباحث العراقي شوقي يوسف بهنام في كتابه «فأرة أدونيس» (مطبعة بيريفان ــ أربيل) نصوص الشاعر أدونيس، محاولاً أن يقدّم مقاربات سيكولوجية لخطابه الشعري

السينما والفاشية

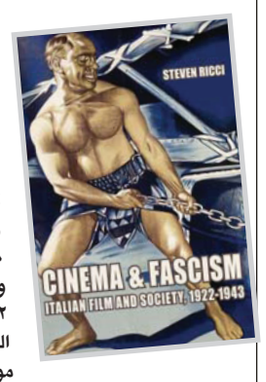

كتاب «السينما والفاشية» لمؤلفه ستيفن ريتشي والصادر عنجامعة كاليفورنيا ٢٠٠٨ هو كتاب عن السينما الإيطالية وعلاقتها بالمجتمع خلال سنوات ١٩٢٢-١٩٤٣، أي في ظل النظام الفاشي الذي أقامه الدكتاتور الإيطالي بينيتو موسوليني.

تماسات

من الوردة الى العميمة عن دار الشؤون الثقافية العامة، صدرت مجموعة شعرية جديدة، للشاعر ريسان الخزعلي، تجسد فيها الهم الانساني، واشارات لبداياته الاولى، وذاكرة الطفولة التي تحمل عبق الاهوار واشارات الى مملكة الماء.

حكيم الحكام.. من قاسم إلى صدام

مازن لطيف

كتب مذكرات الأطباء لها نكهة وميزة خاصة فقد كتب الدكتور كمال السامرائي مذكرات في أربعة أجزاء وكان جزءً من تاريخ العراق المعاصر واليوم نقرأ مذكرات لأحد أطباء الرؤساء والحكام الذي لاتزال سيرته محفورة في الذاكرة العراقية ،كطبيب له إنجازات كبيرة في مجاله التخصصي.. في الكتاب الصادر حديثاً عن دار المدى» حكيم الحكام من قاسم إلى صدام « للدكتور فرحان باقرالتي ستبقى مادّة لقراءة تاريخ العراق المعاصر،قدم الكتاب الدكتور عبد الهادي الخليلي الذي اعتبر د. فرحان باقر ساهم مساهمات متميزة في الجمعية الطبية العراقية في ستينيات القرن العشرين ، وفي مجال الخدمات الطبية في العيادات الخاصة كان له قصب السبق في إرساء قيم جديدة على المجتمع الطبي العراقي في الممارسة الطبية غير الحكومية ، يذكر الخليلي ان كتاب «حكيم الحكام « إضافة مهمة للمكتبة العربية والعراقية تفيد الأطباء والمؤرخين كمصدر تجربة وتوثيق، وان المذكرات اتصفت بالريادة الطبية والأكاديمية وخدمة المجتمع بكل ما يستطيع..

يخبرنا الدكتور فرحان ان ولادته عام ١٩٢٦ في مدينة الكاظمية من أبوين عراقيين ، والتحق بمدرسة المفيد الابتدائية وكان متميزاً في الدراسة ثم انتقل الى مدرسة الكاظمية المتوسطة للبنين وبعدها الى المدرسة الثانوية المركزية في الفرع العلمي ، كان رغبته ملحة في الطب الباطني حيث طلبه أستاذ الجراحة الدكتور روجرز أكثر من مرة لي ليكون أحد أعضاء فريقه الجديد للجراحة ، وقد أضطر الى الأنتماء لشعبة علوم وظائف الأعضاء ــ على مضض ــ كمعيد لساعدة طلبة الصفوف النهائية حيث لم يكن الفارق بالعمر بينه وبين الطلاب كثيراً، وبقى د. باقر يصارع رغبته القديمة في الطب الباطني من خلال ممارسته الطب السريري.. يذكر صاحب المذكرات انه كان ثالث عراقي يحصل على عضوية كلية الأطباء بعد الأستاذ الدكتور محمود الجليلي والاستاذ الدكتور عبد الجبار العماري وكان الرابع هو الدكتور إبراهيم الحيالي الذي تأخرت عودته الى العراق وقام عبد الامير علاوي وزير الصحة آنذاك بإصدار قرار بتعين د. باقر فرحان في المستشفى الملكي والمستشفى التعليمي بكلية الطب .. يصل المؤلف الى ثورة ١٤ تموز عام ١٩٥٨ الثورة التي يجد د. باقر فرحان صعوبة في وصفها أو وضع اسم مناسب لها بعد ان عايش تلك المرحلة ، ويذكر د. فرحان ان تصادف وجوده في موسكو مع وجود المرحوم كامل الجادرجي رئيس الحزب الوطني الديمقراطي في نفس المصحة وقد زاره متمنياً الشفاء للجادرجي وقال له الجادرجي مازحاً معه : انظر يادكتور كيف تعاملنا الشيوعية!. حيث كان لكل منهما شقة فخمة التأثيث ملفتة للنظر ذات ثلاث غرف، وأردف قائلاً : أهذه هي الاشتراكية أم الأرستقراطية!.

ومن ذكريات د. فرحان عن الزعيم قاسم انه تعرف به بعد محاولة الاغتيال التي تعرض لها الزعيم يوم ١٦ تشرين الاول ١٩٥٩ حيث كانت أول فرصة لإسداء الخدمات الطبية لأول «حكام» العراق في العهد الجمهوري ، وقد تم استدعاء د. فرحان لفحص الزعيم وبالفعل قام بفحص صدره ورئتيه ووجدهما سالمتان ولم يتعرضا الى اصابة بالإطلاق الناري ، وقد كان عدد من أسرة الزعيم من مرضى الدكتور فرحان شقيقته وزوجها وحرم السيد حامد قاسم وهو أخو الزعيم ، يصف د. فرحان شخصية الزعيم انه كان حاد الذكاء ، وله إلمام واسع بالمجتمع العراقي ، وكان وطنياً صادقاً ، لم يطمع بمال او مكسب ولم يكن شيوعيا وكان بعيدا عن الطائفية واواد ان يزيل الفجوة بين الطوائف ، وكان مخلصاً للفقراء ، وللأنصاف يذكر ان عبد الكريم قاسم كان الشخص المحبب والاقرب إلى نفوس الجماهير العراقية على الاطلاق . اما عن فترة مابعد الزعيم فيذكر د. فرحان ان من بين المراجعين لعيادته تلك الفترة كان احمد حسن البكر ولم يكن لصاحب المذكرت اية صلة مهنية مع عبد السلام عارف لنصيحة ألقاها احد زملائه في مسامعه أدت الى استبعاده وكان يجهل السبب برغم ان د. فرحان كان طبيبا لاخيه اللواء عبد الرحمن عارف وعائلته ومدير الامن العام.. يصف صاحب المذكرت عبد الرحمن عارف انه كان رجلا متوازنا هادئ الطبع بسيطا متواضعا دمث الأخلاق ، ومن الذين عالجهم د. فرحان الاستاذ عبد الرحمن البزاز والضابط سعيد صليبي والعديد من الشخصيات السياسية العسكرية .. يصف انقلاب تموز ١٩٦٨ بشكله الهزيل انه اقرب الى لعب اطفال صغار ، بضع مدرعات بسيطة وقديمة وطلقات معدودة وبعدها عرض احمد حسن البكر عرضه على د. فرحان بأن يكون الطبيب الخاص للقصر الجمهوري لكن فرحان اعتذر وبعدها صدر امر رسمي وهو الامر الوحيد بطبابة القصرالجمهوري ، وبعدها توطدت علاقة د. فرحان بالبكر وكان يصحبه الى الغداء في القصر الجمهوري اكثر من مرة حيث يجلس على يساره وعلى يمينه يجلس حردان التكريتي وعدد من المسؤولين وكان هناك في ركن بعيد من القاعة شاب أسمر رشيق برتبة ملازم عرفه د. باقر فيما بعد انه صدام التكريتي الذي تطورت علاقته وتقاربه واصبح طبيبه الخاص وكان صدام يزور عيادة د. فرحان مرات عديدة وبعد تسلم صدام السلطة وبعد مايقارب الأربعة أشهر من أقالة البكر فوجئت الاوساط الطبية بقرار فوري من مجلس قيادة الثورة ــ برئاسة صدام ــ بإحالة ٤٨ أستاذا من جامعة بغداد وكبار اطباء وزارة الصحة على التقاعد وكانوا من خيرة اطباء العراق وقد كانت القائمة التي احيلت على التقاعد تشكل العمود الفقري لكلية الطب العراقية . وفي تموز عام ١٩٨١ خرج د. فرحان من العراق .. في الكتاب الكثير من المواقف والآراء للدكتور فرحان تستحق التقدير وسوف تبقى علامات استفهام في تاريخ العراق المعاصر.